الاستعارة القرآنيّة: أصنافها وتجلياتها في الصّحيفة السّجاديّة

بقلم د. ناجي الحجلاوي

المعهد العالي للحضارة الإسلاميّة

الجامعة الزّيتونيّة

الملخّص

لم يؤثّر كتاب قطّ بأساليبه الإبداعيّة والفنيّة كتأثير القرآن الكريم في ضروب الخطابات الّتي انتهجها الخطباء والبلغاء، ومنهم الإمام زين العابدين (عليه السّلام). ولمّا كان الدّعاء هو العبادة، فإنّ القرآن ذاته حافل بالأدعية. فالدّعاء أسلوب كلامي مشحون بطاقة روحيّة عالية. وإذا كانت الصّحيفة السّجاديّة تنهض على الدّعاء فإنّ الحضور القرآني ثنْيَها كان واضحاً في مستوى العبارة والصّياغة تجلّيا للاستعارة القرآنيّة. فكانت الآيات القرآنيّة دليلاً على الاستناد القويّ إلى أرضيّة نصّية ثابتة. وهو دليل تأثّر بالغ ومباشر أحياناً وغير مباشر أحياناً أخرى. وقد يُعمد إلى التّناص الخفيّ حيث الاستفادة من المعاني القرآنيّة استفادة مبطّنة.

وغير خافٍ، أنّ من تفرّعات الاستعارة استلهام المنهج الرّبّاني العام الذّي يستهدف صلاح الإنسان الجالب لصلاح العالم. ولعلّ أبرز العلامات الدّالة على هذا الصّلاح تتجلّى في الإيمان بالله في التّقوى وطاعة الوالدين والبرّ بهما ومقاومة الشّرّ والظّلم وأهلهما باعتبار أنّ هذه القوى حجرة عثرة أمام إرساء القيم الدّينيّة الخالدة المشكّلة للصّراط المستقيم كما قرّره القرآن الكريم. تلك معالم راسخة في تفكير الإمام زين العابدين (عليه السّلام) في صحيفته

المعبّرة بوضوح عن قيم أرسى دعائمها الأنبياء والرّسل، بما تضمّنته من تفرّعات للاستعارة القرآنيّة.

إنّ فرضيّة هذه الورقة تنهض على اعتبار أنّ القرآن الكريم هو المنهل الجوهريّ الذي استلهم منه الإمام (عليه السّلام) جمال العبارة وروعة الأسلوب وعمق المعنى وبُعد الدّلالة. وسيتمّ، في تبيان كلّ ذلك، الاعتماد على المنهج الاستقرائي والتّحليلي والتّأليفي.

١) المقدّمة

إنّ الآثار على اختلاف أنواعها أدبية أو دينية أو تاريخية أو غيرها تكتسب قيمتها من جهتين: جهة الشّكل وجهة المضمون. ويبدو كمالها في أوفى صورة عندما ينسجم الجانبان روعة الأسلوب ونُبل المحتوى. ولا غرو، في أنّ اختلال هذه العلاقة ينعكس سلباً على قيمة الأثر.

إنّ الوظائف الّتي تضطلع بها البلاغة هي بلوغ المقاصد وإدراك المعاني الّتي يروم الباثّ توصيلها إلى السّامع. ولمّا كان البيان ساحرا فقد تفاضل المتكلمون بحسب امتلاكهم لناصية اللّغة. ولمّا كانت الاستعارة رأس البيان ومجمع المعاني فإنّ هذه الدّراسة تسلّط الأضواء على مستويات هذه الظّاهرة اللّغوية في الصّحيفة السّجادية باعتبارها أثرا دينيا ورد في شكل لغوي بديع يفيض بالتّشابيه والمجازات والاستعارات.

٢) هُويّة الصّحيفة

تتضمّن الصّحيفة السّجادية أربعة وخمسين دعاء. وهي من أقدم الآثار وأوفرها تواتراً، لذلك حازت على نصيب كبير من الثّقة والمصداقية. وهي من جمع الشيخ (الحرّ العاملي)، وأعاد جمعها ثلة من العلماء كالمرحوم (الأفندي) والمحدث (النوري) و(محسن الأمين). وهي صحيفة على قدر كبير من الأهمية لما فيها من توثيق للفترة التّاريخية الّتي كانت تعيشها الأمة الإسلامية. وأهمّ مميّزاتها تتمثّل في شدّة الوطأة الاستبدادية وكثرة الدّماء المراقة من المعارضين. وبالإضافة إلى ذلك، تتضمّن الصّحيفة السّجادية طاقة روحية ومعنوية مُوجّهة لتطهير المفاسد القيمية والأخلاقية الّتي كانت منتشرة. وقد انسجم أسلوب الدعاء مع هذا الهدف الإنساني النبيل فجاءت الأدعية حُبْلى بالمنازع النقدية والإصلاحية والتّوجيهية لعلم الإمام (عليه السّلام) المسبق بمسؤولية العلوم في المجتمعات الّتي تفتقد إلى الأخلاق فتتحوّل إلى غابات يسودها التّوحش والتّخلف.

إنّ الرّسالة بحر موّاج من المعارف الدّينية والاجتماعية والسياسية. ولعلّ ذلك ما حدا بالإمام الخميني إلى القول في إحدى خُطبه الجُمعية: "أرجو منكم أعزائي وبخاصّة الشباب أن تأنسوا بالصّحيفة السّجادية، فما في هذا الكتاب هو دعاء في الظّاهر، أمّا في الباطن فهو كلّ شيء"[1].

وفي هذه الصّحيفة قيم ومبادئ ونصائح وتعليمات متعلّقة بالإيمان وبالغيب وبالملائكة والكُتب والأنبياء وبالجنّة والنّار وحياة البرزخ، وفيها حديث عن الماضي والآتي

[1] من خطبة الإمام الخميني يوم الجمعة بتاريخ ١٩٩٥/٢/٣.

من الزّمان. وهي في شكل دعائي يفيض بطاقة إيمانية عالية تقدّم حلاّ للضيم والظلم والفساد الأخلاقي والسياسي الّذي ساد في عصره. فهي أشبه بقارب النجاة المؤدي إلى شاطئ السلامة في الدنيا والآخرة.

وقد سُميّت الصّحيفة بعديد الألقاب ما جعل الإمام السّجاد (عليه السّلام) نموذج الأديب الشرعي الّذي أغنى المكتبة الإسلامية بآثار ثمينة تحتل المرتبة الثّانية بعد نهج البلاغة للإمام علي (عليه السّلام). وهو بالصّحيفة أسّس بدعائه لمنهج روحاني من خلال أساليب فنّية رائقة تنسجم مع طبائع التّائبين المتأنّسين بالقرب من الله[٢].

٣) تجلّيات الاستعارة القرآنية في الصّحيفة السّجادية

لقد مثّل القرآن بقداسته ومتانة أسلوبه مرجعا مهمّا لتفكير الإمام زين العابدين (عليه السّلام). وقد تجلّى هذا الأمر في الاستعارات العديدة المضمّنة ضمن دعائه. وقد تجلّى المستوى الأوّل منها في اعتماد اللّفظ القرآني. إنّ اللّفظ القرآني ليس مفردة عادية وإنّما هو إشارة مركّزة ومكثّفة في رسم المعنى وإصابة الدّلالة. وعليه، فإنّ الهيكل البنائي للنّص مرتبط شديد الارتباط بالمعنى الكلّي المُحيل على الكون بأسره. إذ إنّ آفاق اللّغة عند الفلاسفة هي بحدود العالم، "فالمعاني أفكار مجرّدة تُخرجها المفردات إلى عالم الوجود وتنتشلها من عالم المفاهيم إلى عالم المصاديق. وليس كلّ مفردة تصلح للقيام بهذا الدّور ما لم يتصرّف بها

[٢] انظر غلا مرضا كريمي فرد، الجمالية في الصّحيفة السّجادية، مقال ضمن مجلة العلوم الإنسانية، ص٧٤ وما بعدها.

مُبدع له من القدرة والإبداع حظّ كبير"[٣]. والمفردة، في حقيقة أمرها، تتميّز بقدرة على التّلوّن الدّلالي بحسب المقامات والسياقات المختلفة. فهي ذات حيّة وكيان مُتغيّر. والملاحظ، في هذا الصدّد، هو كثرة المفردات القرآنية المستخدمة في الصّحيفة السّجادية. ففي دعاء الإمام (عليه السّلام) إجراء لمفردة "الأبصار" في قوله: "الحمد لله الأوّل بلا أوّل كان قبله، والآخر بلا آخر يكون بعده، الّذي قصُرت عن رؤيته أبصار النّاظرين"[٤]. وقد ورد في الذكر الحكيم قول الله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[٥]. وإذ يبدأ الإمام أدعيته، بالحمد لله، فتلك إحالة صريحة على بداية سورة الفاتحة، فالله صاحب الجلالة الّذي منّ على مخلوقاته بنعيم يعجز المُحصي عدّها، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٦]. ولذلك يجنح الإمام (عليه السّلام) في كثير من الأحيان إلى الاعتراف بهذا الفضل الإلهي معبّرا عن ذلك بصراحة في قوله: "اللّهم إنّ أحداً لا يبلغ من شُكرك غاية ما حصل عليه من إحسانك ما يلزمه شكراً ولا يبلغ مبلغاً من طاعتك وإن اجتهد إلاّ كان مقصّراً دون استحقاقك بفضلك فأشْكر عبادك عاجز عن شكرك وأعْبدهم مقصّر عن طاعتك لا يحب لأحد أن يُغفر له باستحقاقه ولا أن يرضى عنه باستجابة، ومن غفرت له فبطوْلك ومن رضيت عنه فبفضلك"[٧]. وقد جرت استعارة لفظ "الشكر" من قول الله

---

[٣] انظر رفاه عبد المحسن الفتلاوي، أنواع الاقتباس من القرآن الكريم في أدعية الصّحيفة السجادية، مجلة الولاية، ع١١٢، سنة ٢٠١٨، ص ص٤٦،٤٧.

[٤] الإمام زين العابدين (عليه السّلام)، الصّحيفة السّجادية الكاملة: من أدعية الإمام زين العابدين (عليه السّلام)، تقديم سماحة الإمام السيد محمّد باقر الصدر، منشورات مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

[٥] سورة الأنعام ٦، الآية ١٠٣.

[٦] سورة النحل ١٦، الآية ١٨.

[٧] الإمام زين العابدين (عليه السّلام)، الصّحيفة السّجادية الكاملة، م ن، ص ٦٣.

تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[٨]. وأمام تقصير الإنسان عن شكر الله لم يبق أمامه إلاّ الاعتراف بهذا التّقصير أمام فضل الله الواسع البادي في اتّساع رحمته الّتي وسعت عذابه. والأمثلة الدّالة على جريان الألفاظ القرآنية في أدعية الصّحيفة السّجادية عديدة ومتنوّعة نكتفي بالإشارة إلى البعض منها من قبيل (مهيمن، ونور، والعروة الوثقى، ومحكم الآيات، والمتشابهات، والزيْغ، والأبرار، وآناء الليل، وأطراف النهار، والإملاق، والرّضوان، والشفاعة).

وأمّا المستوى الثّاني من الاستعارة فهو اعتماد التركيب والجملة حفاظاً عن الشكل البنائي للنّص المستعار حيث التّنصيص الواضح إيضاحاً للمعنى وترصيعاً له. ومن الأمثلة الدّالة على ذلك قول الإمام (عليه السّلام): "أنت الّذي فتحت لعبادك باباً لعفوك وسميته التوبة وجعلت على ذلك الباب دليلاً من وحيك ألاّ يضلّوا عنه. وقلت تبارك اسمك توبوا إلى الله توبة نصوحاً"[٩].

وغير خافٍ، عن المطالع للصّحيفة السّجادية أنّها تحتوي على العديد من التّراكيب والعبارات والجمل الّتي تُحيل على القيل القرآني الصريح. ومن الأمثلة الدّالة على ذلك نذكر الاعتصام بالحبل، وقيل من راق.....ومن هذا المنطلق يمكن القول إنّ أغلب الأفكار مستلهمة من كتاب الله الكريم. يقول الخميني في هذا الإطار: "الصّحيفة السّجادية الكاملة أنموذج كامل للقرآن الصّاعد ومن أعظم المناجاة العرفانية في حلاوة الأنس الّتي تعجز أيدينا

[٨] سورة لقمان ٣١، الآية ١٢.

[٩] الصّحيفة السّجادية، م ن، ص ٨١.

عن نيْل بركاتها. إنّه كتاب إلهي استمد وجوده من معين نور الله ويعلّم أصحاب الخلوة الإلهية طريقة سلوك الأولياء العظام والأوصياء الكبار كتاب شريف يوضح أسلوب بيان المعارف الإلهية بأصحاب المعرفة مثلما هو أسلوب القرآن الكريم بعيداً عن تكلّف الألفاظ"[١٠].

إنّ قارئ القرآن يتمثّل مخاطبة الله له. فالشكل الخطابي نازل. وأمّا الدّعاء فيتّخذ اتّجاهاً معاكساً إذ يصعد الصوت من الدّاعي إلى ربّه في شكل تصاعدي. لذلك عبّرت الصّحيفة السّجادية عن تأنس الدّاعي بقربه من ربّه وقرب ربّه منه.

إنّ المتأمل في ثنايا الأساليب المبثوثة في الصّحيفة يُلفي على سبيل المثال ضمن الدّعاء الرّابع والعشرين ما يلي: "اللّهم صلّ على محمّد وآله كما شرفتنا به". ففي هذا الاستعمال نجد الاستعارة واضحة حيث حُذف المشبّه به ولكنه مقدّر وشرفتنا يؤوّل بالمصدر لحضور حرف "ما" المصدرية. وعندئذ تصبح الجملة دالة على الاستعمال التّالي: "اللّهم صلّ على محمّد وآله صلاة كتشريفك أيّانا به". وضمن الدّعاء التّاسع والأربعين يورد الإمام (عليه السّلام): "هب لي يا إلهي من رحمتك ودوام توفيقك ما اتّخذه سُلّماً". وانظر إلى تشبيه طلب المغفرة بسُلّم يُوصله إلى معارج الرّضوان ومعالي القبول. والفائدة من هذا الإجراء بيان حالة الدّاعي التّائب الرّاجع إلى الله بقوّة عبر لفظة "سلّم" الّتي تمّت الإشارة إليه في كتاب الله لتزداد العبارة ارتباطاً بالوحي المعجزة بعبارته وأسلوبه.

[١٠] انظر صحيفة نور، ج٢١، ص١٩١.

وفي الدّعاء الخمسين قال: "اللّهم فصلّ على محمّد وآل محمّد وكِدْ لنا ولا تكد علينا وامكر لنا ولا تمكر بنا". وهو دعاء يعج بالجناس والطباق والاستعارة. فلفظ "وإنْ" دلّ معزولاً على أمور سالبة فإنّ إجراءه في سياق مخصوص يتحوّل المعنى إلى الإيجاب بمقتضى المعاملة بالمثل والمماثلة طريقة توصل إلى المعنى المراد. قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[11]. فهي استعارة تبعية جرت في الفعل. وفي الدّعاء الثّالث عشر نجد العبارة التّالية: "إنّ يدك بالعطايا أعلى من كلّ يد". والمجاز واضح جلّي؛ لأنّ اليد رمز الإرادة والقدرة والاستعارة المكنية واضحة؛ لأنّ المشبّه به محذوف واليد لازم من لوازمه. وهي أيضا استعارة مطلقة؛ لأنّ الملاءمة بين المستعار منه والمستعار له غير موضحة بطريقة مباشرة.

إنّ الاستعارة تُعرض عن المعنى القريب المباشر لتضرب بقوّة في المعاني البعيدة ،وهو ما يزيد المعاني عمقاً وبُعداً. والمهمّ أنّ أصناف الاستعارات المختلفة تزداد جمالاً بما في الصّحيفة من تشابيه ومجازات ومحسّنات بديعية كالجناس والطباق والسّجع. وبذلك تجمع الصّحيفة السّجادية تقاطعات من علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع مجموعة بعضها إلى بعض. وانظر إلى فنّ الموازنة ثنْي الصّحيفة حيث الموازنات بين عدد المفردات وأنواعها. وهو فنّ في تصريف الكلام المتأثّر بالأساليب القرآنية. وانظر إلى الدّعاء الثّامن: "نعوذ بك من سوء السّريرة واحتقار الصغيرة وأَنْ يستحوذ علينا الشيطان أو ينكبنا الزّمان ويتهضّمنا

[11] سورة آل عمران ٣، الآية ٥٤.

السلطان ونعوذ بك من تناول الإسراف ومن فقدان الكفاف ونعوذ بك من شماتة الأعداء ومن الفقر إلى الأكفاء". وهو نوع من الازدواج الّذي يُحدث جرساً موسيقياً مصاحباً للكلام فيكون التّأثير في النّفس مضاعفاً. فالمعنى النبيل يزداد قبولاً إذا كان في أسلوب جميل. وقد عاضد كلّ هذه التّجليات حضور ضروب الموازنة مثل الدّعاء السّادس والأربعين: "أخّرت وأنت مستطيع للمعاجلة، وتأنّيْت وأنت مليء بالمبادرة. لم تكن أناتك عجزاً ولا أماهلك وهنًا بل لتكون حجتك أبلغ وكرمك أكمل". بالإضافة إلى نظام الفواصل المحبوك بشكل لافت يدل على فصاحة في مستوى الألفاظ وعلى بلاغة في مستوى العبارة "يا من يرحم من لا يرحمه العباد ويا من يقبل من لا تقبله البلاد". فالكلام مزدان ومزركش بالمحسنات الخادمة لحضور الاستعارة كقوله (عليه السّلام): "يا من لا تُفني خزائنه المسائل". فالله ذو مخازن توحي بكلّ ما يخطر على البال من مباهج مادية ومعنوية ما لم تر العيْن ولم تسمع به أذن ولم يخطر على بال بشر. وهي طريقة إيحائية تفسح المجال أمام الذّهن للتّخّيل.

والاستعارة مخدومة بكلّ هذه المحسنات جناساً وطباقاً ومقابلة ورداً للإعجاز على الصدور. ومثال ذلك قوله: "لا فاتح لما أغلقت ولا مغلق لما فتحت". إنّ الاستعارة هي مركز الاهتمام البلاغي، وكلّ المحسنات الأخرى خادمة لهذا المحور تكثيفاً للتّخيّل والتّصوّر حتّى تصبح المعاني صورة حيّة ومشهداً متحرّكاً وبه تصبح الصّحيفة الّسجادية قطعة فنية تفيض بالمعاني والقيم الإنسانية الخالدّة.

وقد خدم التّقابل الاستعارة بشكل بارز. واللاّفت، في هذا الصدّد، هو أنّ التّقابل الّذي يبدو تفريقا للمعنى، فهو في الأصل عنصر انسجام والتحام. وقد عرف علماء اللّغة أنّ البلاغة تُعرف بها وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة بين المقام والمقال ووضوح الدّلالة. والاستعارة هي رأس الفنّ الكلامي حيث تتجلّى ذروة الاتّصال بين الانسجام والانفصام، الباطن والظّاهر، المعنى المراد والمعنى المُصرّح به. فالدلالة ثابتة لكنّ أجزاء النّص هي الّتي تشي بذلك. والمُتلقي هو الّذي يُشارك في إنتاج المعنى عبر الرّبط بيْن أجزاء الكلام المصرّح بها والمسكوت عنها.

وقد جنح الإمام زين العابدين (عليه السّلام) إلى الذّكر والحذف والتّعميم والتّخصيص والإشارة والعبارة، والتّصريح والتّلميح، ما يستتبع وحدة معنوية كلية عمادها الرّجاء في الاستجابة من الله تعالى رحمة بعباده. وقد بدت المتعة بادية في الإشباع النّفسي حيث الغذاء الروحي المدعم للكينونة المسكونة بحبّ الله الرّحمن الرّحيم[١٢].

إنّ اللغة أداة خطيرة ؛لأنّها تُعبّر عن حدود الوجود بأسره. ومن ذلك بدت الصّحيفة السّجادية مثقلة بالاستعارات والمحسّنات تعبيراً عن نفس كبيرة وعقل راجح يسبر أغوار الحياة عبر اتّساع التّجارب والخبرة بمعادن النّاس. وقد بدا جدل النّور والظلام، والعدل والظلم، والحرّية والاستعباد مُعبّراً عن تناقضات الواقع المعيش الّذي كان بحر الفتن فيه يتلاطم، فلا

[١٢] انظر أحمد الطرفي ، في دراسة علم البلاغة في صحيفة الإمام السجاد، مقال منشور في دار السيدة رقيّة للقرآن الكريم بالموقع الإلكتروني التالي: www.ruqayah.ne

عجب أن يُستخدم التّضاد والطباق والمقابلة من أجل كشف الغطاء عن سوءات هذا الواقع المعيش.

وإذا كانت المعاني الواردة في الصّحيفة تدور في أغلبها على المعاني القرآنية فإنّ طريقة الأداء اللّغوي هي الحاملة لبصمات المبدع الصادع برأيه. ومن هذا المنطلق نشأ الأسلوب الّذي يعرّف بكوْنه معادلاً للإنسان ومفاده أنّ كلّ فرد له أسلوبه المميّز. وقد بدا المعجم والعبارة والأسلوب، ضمن الصّحيفة السّجادية في تآلف كبير دل على القدرة القولية لدى الإمام (عليه السّلام) إذ تحوّل الدّعاء إلى شيء آخر من منظور الدّراسة الأسلوبية. فما الدّعاء إلاّ شكل ولكنه يتضمّن محتويات عديدة. وإذا كانت اللّغة مفروضة من الخارج على الفرد المتكلم فإنّ الأسلوب مجموعة إمكانات توفّرها اللّغة يستخدمها الكاتب أحسن استخدام لإخراج المعنى المراد في أحسن ثوب[١٣].

هذه الرّسالة الّتي تضمّ (٥٤) دعاءً، تمثّل ذخيرة من الحكمة ومنجما من المعارف الروحية ومدوّنة سلوكية مهمّة.

٤) المنهج

كان المنهج في الملّل السابقة عن الإسلام يتميّز بانفصاله عن المضامين الإيمانية والتّصوّرات إزاء الوجود، ولكن الدّين الإسلامي مع خاتم الأنبياء انطبع بالتّضام بين الرّسالة والمنهج. فكان الدّال في هذا الدّين من جنس دليله. وقد فاضّ هذا التّضام على

[١٣] انظر ريمون طحان، الأدب المقارن والأدب العام، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، سنة ١٩٧٢، ص١١٦ وما بعدها.

الدّعاة والمصلحين بشكل جعلهم يتمثّلون هذا المنهج ويقدّمونه في أفكارهم أداة في الإقناع في المستوى النّظري، وطريقة في تطوير واقع النّاس نحو الأفضل في المستوى العملي. ذلك هو الشأن مع الإمام زين العابدين (عليه السّلام) وقد رسم في الصّحيفة السّجادية معالم منهج يستلهم المعنى الكلّي الثاوي في كتاب الله وعماده الاتّصاف بالتقوى الّتي هي ثمرة طبيعية لشجرة العلم والعقل والحلم والتّفكّر والتّذكر والحكمة، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[١٤].

إنّ الدّعاء، في الصّحيفة السّجادية، يحتوي على معالم المنهج الأوفى الّذي يرتضيه الإمام (عليه السّلام) في ضوء المعاني القرآنية ما يجعل هذا المنهج يتّسم بالرّبانية والقوامة الإلهية على الخاضعين لأوامر الله ونواهيه. يقول (عليه السّلام): "ولا ملاذ يُلجأ إليه منك فهذا مقام العائذ ومحلّ المعترف فلا يضيقن عني فضلك ولا يقصرن دوني عفوك ولا أكن أخيب عبادك التائبين ولا أقنط وفودك الآملين"[١٥]. فالإنسان الكامل المتبّع لمنهج الّذي رسمه الله تعالى في كتابه هو الّذي يقف عند المحارم تهيّباً من الحضرة الإلهية وقوفاً بباب الله بنفس خاشعة حذرة مراقبة لحدود الله. وهذه النّفس المعترفة بالتقصير والذنب إذا دعت فإنّ إمكانية الاستجابة أوفر حظاً وأكثر نصيباً "اللّهم ارحمني... أتضرّع إليك في أن تسهل

[١٤] سورة النحل ١٦، الآية ١٢٥.

[١٥] انظر السّيد علي خان المدنيّ الشيرازي، رياض السالكين في شرح صحيفة السّاجدين (عليه السّلام)، تحقيق السّيد محسن الحسينيّ الأمينيّ، ج٥، مؤسسة النّشر الإسلامي، ط٨، سنة ١٤٣٥هـ، شرح الروضة الثّانية والثّلاثين، ص٦.

إليّ رزقي سبيلاً فلك الحمد على ازديادك بالنعم الحسام وإلهامك الشكر على الإحسان والإنعام"[١٦].

إنّ الدّاعي الّذي يحذر من النّار الّتي نورها ظلمة ولهيبها أليم وبعيدها قريب يأكل بعضها بعضا ويصول بعضها على بعض. نار تذر العظام رميما وتُسقي أهلها حميما، لا تُبقي على من تضرّع إليها ولا ترحم من استعطفها ولا تقدر على التخفيف عمّن خشع لها واستسلم إليها. يدعو النّفس التائبة العائدة إلى ربّها إلى الاحتماء بالله "لا تخذلني يا خير المجبرين"[١٧]. فالله هو الخالق الّذي هو على كلّ شيء قدير.

[١٦] السّيد علي خان المدنيّ الشيرازي، م ن، ص٨.

[١٧] السّيد علي خان المدنيّ الشيرازي، م ن، ص٩.

الخاتمة

لقد حاولت هذه الدّراسة الوقوف على أهمية الصّحيفة السّجادية للإمام زين العابدين (عليه السّلام) من خلال الأسلوب الّذي انتهجته في إخراج الدّعاء. فكانت أساليب البيان أسطع المظاهر البارزة في الصّحيفة. وقد كانت هذه الجوانب مادّة خصبة للأدوات اللّسانية الحديثة. فالنّص مليء بالظّواهر البلاغية في شتى مجالاتها وهو ما ميّز الجوانب الشّكلية في الصّحيفة وهو جانب يتساوق مع المعجزة الّتي جاءت بها الرّسالة الخاتمة مع النّبي محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث كانت اللّغة شاهدة على القدرة على الفصل بين الدّال والمدلول.

إنّ سحر اللّغة مفارق للإعجاز المادّي الّذي كان في الرّسالات السابقة. فاللّغة بحر فياض بالمعاني المتجددة عبر الأمكنة والأزمنة المتغيّرة ولا سيَّما إذا كان الأسلوب إشارياً ورمزياً فهو سبيل الفهم وإعادة الفهم والتّأويل وإعادة التّأويل وذلك هو دأب الأنظمة الرّمزية مستودع المعارف والعلوم. وعليه، فإنّ الفهم المتجدّد هو الأداة المُثلى الّتي تبثُّ الحياة المتجدّدة في أوصال النّص. وهكذا تتجلّى المفاضلة بين النّصوص، إذ النّص القابل لتجدّد الفهم هو النّص المفتوح المكتنز بالأساليب المسبوكة المسكونة بالدّلالة، وذلك هو عُربون الديْمومة والاستمرار في الحياة.

قائمة المصادر والمراجع

١) مدوّنة البحث

*الإمام زين العابدين (عليه السّلام)، الصّحيفة السّجادية الكاملة: من أدعية الإمام زين العابدين (عليه السّلام)، تقديم سماحة الإمام السيد محمّد باقر الصدر، منشورات مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

٢) المصادر

*القرآن الكريم

*الجرجاني عبد القاهر:

- دلائل الإعجاز، تحقيق عبد المنعم خفاجي، ط١، القاهرة، ١٩٦٩.
- أسرار البلاغة، تحقيق عبد المنعم خفاجي، القاهرة، ١٩٧٢.
- الرّسالة الشافية، وهي رسالة ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، نسخة حسين حلبي، مخطوطات الجامعة العربية، دار الوفاء للطباعة والنّشر والتّوزيع المنصورة القاهرة، ط٣، ١٩٩٢.

* الجرجاني الشريف علي بن محمّد السّيد، معجم التّعريفات، تحقيق محمّد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، مصر، د ت.

٣) المراجع

* الهاشمي، السيد أحمد، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، الطبعة الثانية عشرة، بيروت، د ت.

* الأصفهاني الراغب، المفردات في غريب القرآن، الطبعة الثانية، دفتر نشر الكتاب طهران، ١٤٠٤ هـ.

* مدير شانه جي، كاظم، الصحيفة السجادية، مجمع البحوث الإسلامية، الطبعة الأولى، مشهد، ١٣٧١.

* أوسط خانجاتي، فخامة التّعبير والصّحيفة السّجادية، المطبوعة في مجلة "اندشيه ديني"، مقال ضمن مجلة الفكر الدّيني، مجلّة فصلية، جامعة الشيراز، صيف ١٣٨٤هـ، العدد١٥.

* محمّد حسين الشيرازي، شرح الصّحيفة السّجادية، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتّوزيع، دمشق، سورية، ط٥، طبعة مزيدة ومنقحة، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

* الطريحي هادي عباس، المضامين التّربوية في الصّحيفة السّجادية، مقال منشور في مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، فصلية، العراق، سنة ٢٠١٧.

* الجلالي محمّد حسين، دراسة حول الصّحيفة السّجادية، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠.

* الطرفي أحمد، في دراسة علم البلاغة في صحيفة الإمام السجاد، مقال منشور في دار السيدة رقيّة للقرآن الكريم بالموقع الإلكتروني التالي: www.ruqayah.ne

* مجيد محمدي بايزيدي وعيسى متقي زاده وعلي رضا محمّد رضايي، التقابل في الصّحيفة السّجادية وأثره في الانسجام، مقال منشور في مجلة دراسات في اللّغة العربية وآدابها، فصلية، ع١٥، سنة ٢٠١٣.

* خاني حاجي علي ومديري سميّة، الموازنة بين نهج البلاغة والصّحيفة السّجادية على أساس الأسلوبية الإحصائية، آفاق الحضارة الإسلامية، ع٢، السنة ٢٢، سنة ١٤٤١هـ.

* عاشور علي وحسين هدى، الطباق في الصّحيفة السّجادية، مجلة أهل البيت (عليهم السلام)، ع١٢، د ت.